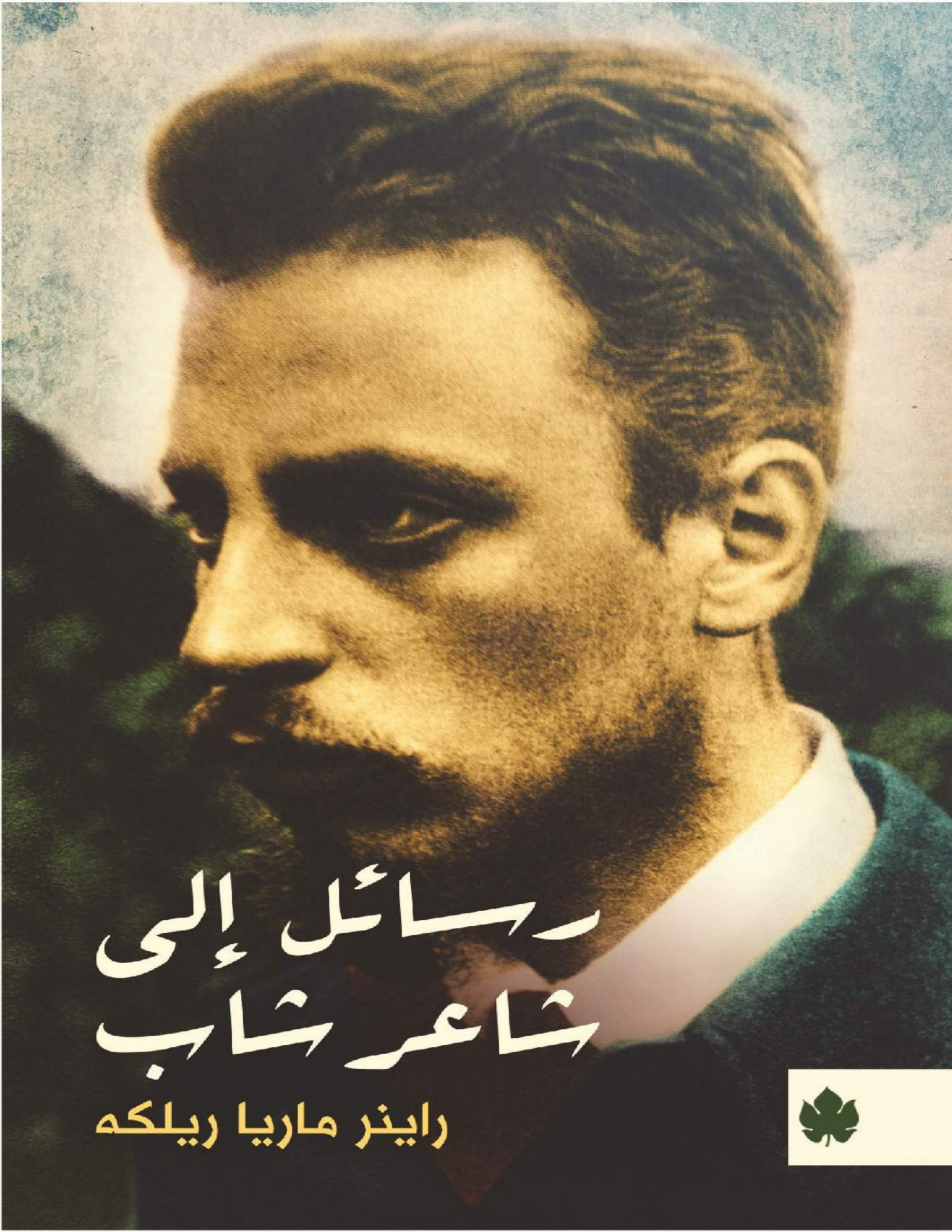

رسائل إلى شاعر شاب

رينر ماريا ريلكه

رسائل إلى شاعر شاب

راينر ماريا ريلكه

رسائل إلى شاعر شاب

ترجمة: صلاح هلال

لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي : Briefe an einen jungen Dichter

راينر ماريا ريلكه، 1929

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © صلاح هلال

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

نشر هذا الكتاب بدعم كريم من

ريلكه، راينر ماريا، 1875-1926

رسائل إلى شاعر شاب / راينر ماريا ريلكه؛ ترجمها من الألمانية صلاح هلال - القاهرة: الكرمة للنشر، 2018 .

تدمك : 9789776467750

1- الرسائل الألمانية .

2- الشعر الألماني .

أ-هلال، صلاح (مترجم).

ب-العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16495 / 2017

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد وبسنت محسن عزت البيومي

BUNDESKANZLERAMT ÖSTERREICH

مقدمة

كان ذلك في أواخر خريف عام 1902 ـ كنت أجلس في متنزه الأكاديمية العسكرية في «فينر نويشتات» تحت أشجار كستناء عتيقة أقرأ في كتاب. وكنت متعمقًا جدًّا في القراءة حتى إني لم ألحظ أن الشخص غير العسكري الوحيد من بين أساتذتنا، «هوراتشك»، قس الأكاديمية المثقف والطيب، قد جلس إليَّ. أخذ الكتاب من يديَ، تفحص الغلاف وهز رأسه، ثم سأل متأملاً :

- أشعار لـ«راينر ماريا ريلكه»؟

أخذ يقلِّب في الكتاب هنا وهناك، يقرأ سريعًا بعض الأشعار، ثم ينظر متفكرًا إلى الأفق، وأخيراً أومأ برأسه وقال :

- هكذا أصبح الفتى «رينيه ريلكه» شاعرًا .

وعرفت عن ذلك الفتى النحيف الشاحب، الذي ألحقه والداه قبل ما يزيد على خمسة عشر عامًا بالمدرسة الإعدادية العسكرية في «سانكت بولتن»، كي يصبح يومًا ضابطًا . كان «هوراتشك» يعمل في ذلك الوقت واعظًا في المدرسة الداخلية، وتذكر ذلك التلميذ السابق جيدًا. وصفه بأنه كان فتًى هادئًا، جادًّا، موهوبًا، يحب الانعزال، ويتحمل ضغوط الحياة في المدرسة الداخلية بصبر، وقد انتقل بعد أربع سنوات مع الآخرين إلى المدرسة الثانوية العسكرية في «ماريش فايسكيرشن».

وهناك اتضح أن لياقته البدنية لا تصلح بدرجة كافية، لذلك أخرجه والداه من المدرسة الداخلية ليكمل دراسته في مدينته براغ. ولم يكن «هوراتشك» يعرف كيف سارت حياته العامة بعدها .

بعد ذلك كله كان مفهومًا أن أقرر في اللحظة نفسها أن أرسل محاولاتي الشعرية لـ«راينر ماريا ريلكه» وأسأله عن حكمه عليها. لم أكن قد أكملت عامي العشرين، وكنت على أعتاب وظيفة أراها ضد ميولي، فتمنيت، لو وجدت تفهمًا لوضعي، أن يكون ذلك لدى الشاعر الذي أَلَّف كتاب «احتفاءً بذاتي». وبلا نية حقيقية مسبقة مني، نشأت مع أشعاري رسالة مصاحبة عبَّرتُ فيها عن نفسي من دون أي تحفظ، كما لم أفعل من قبل ولم أفعل بعدها مع إنسان آخر .

مرت أسابيع كثيرة حتى جاء الرد. أبرز الخطاب ختم بريد باريس الأزرق، كان ثقيلًا في يدي، وحمل على المظروف الخط الواضح والجميل والواثق نفسه الذي كُتبت به الرسالة من أول سطورها إلى آخرها. وهكذا انطلقت مراسلاتي المنتظمة مع «راينر ماريا ريلكه»، التي امتدت حتى عام 1908 ثم تلاشت بالتدريج، لأن الحياة ألقت بي إلى أماكن كان الشاعر «ريلكه» برعايته الدافئة الحنونة والمؤثرة يريد أن يحميني من ارتيادها .

ولكن هذا ليس مهمًّا الآن. الأمر المهم فقط هو الرسائل العشر التي ستتبع هنا، والتي تكتسب أهميتها من إعطائنا نظرة على العالم الذي عاش فيه «راينر ماريا ريلكه» وأبدع، كما أنها مهمة أيضًا لكل من هم

في مرحلة النضج والتطور، اليوم وغدًا. وعندما يتكلم شخص عظيم وفذٌّ، فعلى الصغار أن يصمتوا .

برلين، في يونيو 1929

«فرانتس زافر كابوس »

باريس، في 17 فبراير 1903

سيدي العزيز،

لم تصلني رسالتك إلا قبل بضعة أيام. أود أن أشكرك على ثقتك الكبيرة والغالية، التي أكاد أعجز عن أن أبادلك بأكثر منها. لا يسعني أن أقيِّم جودة أشعارك؛ لأني بمنأى تمامًا عن أي نية نقدية. إن أقلَّ ما يمكن للمرء أن يلامس به عملاً فنيًّا هو الكلمات الناقدة: فالأمر يتعلق عندها بحالات من سوء الفهم التي يحالفنا فيها الحظ بدرجة أو بأخرى. ليست الأشياء كلها قابلة للفهم أو القول كما يحب الناس عادة أن يجعلونا نعتقد، فمعظم الأحداث لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، وتحدث في مكان لم تطأه يومًا كلمةٌ. وأكثر الأشياء التي نعجز عن التعبير عنها هي الأعمال الفنية، فهي موجودات غامضة، وحياتها مقارنة بحياتنا الفانية أبقى .

إذا استهللتُ كلامي بملاحظة، فاسمح لي أن أقول لك إن أشعارك ليس لها طابع خاص يميِّزها، ولكنها تنطوي على لمحات هادئة وخَفية من شخصك. وهذا ما شعرت به أكثر ما يكون في قصيدتك الأخيرة «روحي»، حيث يوجد شيء خاص يريد التعبير عن نفسه بكلماته وطريقته. وربما ينمو في القصيدة الجميلة «إلى ليوباردي» نوع من القرابة مع ذلك الكبير، الوحيد. مع ذلك لا تمثل القصائد شيئًا قائمًا بذاته بعد، شيئًا مستقلاً، ولا حتى الأخيرة منها، ولا تلك المهداة إلى

«ليوباردي». رسالتك الكريمة التي رافقت قصائدك لم تقصِّر في توضيح بعض النواقص، التي لمستها وأنا أقرأ أشعارك من دون أن أستطيع تسميتها باسمها .

تسأل إذا كانت أشعارك جيدة. تسألني أنا؛ ولعلك سألت غيري قبل ذلك، وأرسلتها إلى مجلات، وقارنتها بقصائد أخرى، وشعرت بالقلق عندما رفضت بعض هيئات التحرير محاولاتك. والآن (لأنك سمحت لي بأن أُسدي إليك النصح) أرجوك أن تتخلى عن ذلك كله. إنك تنظر إلى خارجك، وهذا بالدرجة الأولى ما يجب عليك ألا تفعل. ليس بوسع أحد أن ينصحك ويساعدك، لا أحد. لا توجد إلا وسيلة واحدة: عليك بسبر أغوار ذاتك، عليك بالبحث في السبب الذي يدفعك إلى الكتابة، انظر إذا كانت جذوره متوغلة في أعمق مكان في قلبك، واسأل نفسك إذا كانت الكتابة بالنسبة إليك دُونها الموت. والأهم، اسأل نفسك في أكثر ساعات الليل سكونًا: هل عليَّ أن أكتب؟ نَقِّب في نفسك عن إجابة عميقة. وإذا كان الرد بالإيجاب، إذا كان ردك على هذا السؤال الجاد هو قولك بقوة وببساطة: «عليَّ أن أكتب»، فعليك أن تبني حياتك تبعًا لتلك الضرورة؛ يجب أن تصبح حياتك، حتى لحظاتها التي لا تكترث لها تمامًا، تعبيراً عن هذه الضرورة المُلحة وشاهدًا عليها. عندها، اقترِب من الطبيعة. ثم حاول، كما الإنسان الأول، أن تعبر عما ترى وتعايشَ وتحب وتفقد. لا تكتب قصائد حب؛ تجنَّب في البداية تلك الأشكال المعهودة والمعتادة: إنها الأصعب، لأن المرء يحتاج إلى طاقة كبيرة وناضجة كي يكتب شيئًا خاصًّا في مجال وصلتنا فيه كميات من الكتابات الجيدة والباهرة أحيانًا. انجُ بنفسك من معالجة المواضيع

العمومية إلى تلك التي تتيحها لك حياتك اليومية، صف أحزانك وأمانيك، والأفكار التي تعترضك وإيمانك بأي جمالَ ما ـ صف ذلك كله بصدق حميم وهادئ ومتواضع، واستخدم، لتعبر عن نفَسك، الأشياء الموجودة في محيطك، والصور التي تظهر في أحلامك، والأشياء التي تحتفظ بها ذاكرتك. أما إذا بدت لك حياتك اليومية قاحلة فلا تلُمْها، بل لُمْ نفسك، قل لنفسك إنك لست شاعرًا بما يكفي كي تستدعي ثرواتها؛ لأن الإنسان المبدع لا يعرف الفقر، ولا يرى مكانًا فقيراً أو غير ذي بال. وحتى لو كنت حبيس سجن تمنع أسواره أصوات العالم من أن تترامى إلى مسامعك، أفلن تبقى لديكَ طفولتك، ذلك الثراء الملكي الممتع، خزانة الذكريات تلك؟ اصرف انتباهك إلى هناك. حاول أن تستعيد الأحاسيس التي غابت في غياهب ماضٍ بعيد؛ عندها ستترسخ ملامح شخصيتك، وسيتسع فضاء وَحدتك ليصبح منزلًا في ساعة الشفق، يمر ضجيج الآخرين بعيدًا عنه. فإذا خرَجَتْ من رحم ذلك التحول إلى داخلك، ومن ذلك الغوص في عالمك الخاص، قصائدُ، فإنك لن تفكر حينها في أن تسأل أحدًا إذا كانت أشعارًا جيدة؛ كما لن تحاول كسب اهتمام المجلات لتلك الأعمال: لأنك سترى فيها شيئًا طبيعيًّا محببًا إلى قلبك تملكه، وجزءًا من حياتك وصوتًا لها.
يكون العمل الفني جيدًا حين يأتي عن ضرورة. الحكم على الشعر لا يكون إلا بناء على نوعية منشئه هذه؛ لذلك، سيدي العزيز، لم أجد لك نصيحة إلا تلك: تعمَّق في ذاتك وابحث في أعماقها التي تنبع منها حياتك، ففي نبعها ستجد الإجابة عن السؤال ما إذا كان عليك أن تُبدع. خذها كما تبدو، من دون تأويل. ربما يتضح عندها أنك خُلقت لتكون فنانًا. وساعتها خُض المغامرة وتحمل هذا القدَر بمعاناته وعظمته، من

دون أن تطلب أبدًا المكافأة التي يمكن أن تأتي من الخارج. لأن المبدع يجب أن يكون عالَمًا قائمًا بذاته، وأن يجد كل شيء في داخل نفسه وفي الطبيعة التي ارتبط بها .

وربما تضطر، بعد ذلك الغوص في ذاتك وفي وحدتك، أن تتخلى عن فكرة أن تصبح شاعرًا (يكفي، كما قلتُ، أن يشعر المرء أن بإمكانه الحياة من دون كتابة، حتى يكون الأجدر به ألا يكتب تمامًا). ولكن حتى في تلك الحالة فإن هذا الاستبطان، الذي أرجوك القيام به، لن يذهب سُدى، إذ ستجد حياتك على أي حال من تلك اللحظة طُرقًا خاصة بها، وأتمنى، أكثر مما يمكنني قوله، أن تكون تلك الطرق جيدة وغنية ورحبة .

ماذا يجب عليَّ أن أقول لك بعد؟ يبدو لي أن كل شيء قد أخذ حظه من التأكيد كما ينبغي؛ وأخيراً ربما أود أن أنصحك أيضًا أن تنمو في مسار تطورك بهدوء وجدية؛ إذ لا يمكنك أن تعرقله بأكثر من أن تنظر إلى خارجك، وأن تنتظر إجابات تأتيك من الخارج عن أسئلة ربما لا يمكن أن يقدمها لك سوى إحساسك العميق في أكثر ساعاتك سكونًا .

لقد أسعدني أن أجد اسم السيد الأستاذ «هوراتشك» في رسالتك؛ أنا أُكِن لهذا العالِم الودود عظيم التقدير، وامتنانًا راسخًا عبر السنين. أرجو أنَ تنقل إليه مَشاعري تلك؛ إنه لأمر طيب جدًّا أن يذكرني حتى الآن، وأنا أقدر له ذلك .

كما أرُد إليك، في الوقت ذاته، القصائد التي استودعتني إياها في ثقة وود. وأشكرك مرة أخرى على عظيم ثقتك ولطفها، التي حاولت من خلال جوابي الصادق، الذي كتبتُه بأفضل ما أوتيت من علم، أن أكون أهلاً لها أكثر مما أنا عليه بوصفي في حقيقة الأمر شخصًا غريبًا عنك .

ولك مني عظيم الامتنان والمشاركة القلبية،

راينر ماريا ريلكه

«فياريدجو» بالقرب من «بيزا» (إيطاليا) ،

في 5 أبريل 1903

أستميحك عذرًا، سيدي العزيز، أن تأخَّر ردي على خطابك المؤرَّخ بـ24 فبراير، والذي تلقيته شاكرًا، حتى اليوم: كنت أعاني طوال الفترة الماضية؛ لم أكن مريضًا بمعنى الكلمة، ولكن أصابني إعياء يشبه الإنفلونزا جعلني غير قادر على القيام بأي شيء. وأخيراً، بعد أن أبت حالتي التحسن، سافرت إلى هذا البحر الجنوبي، الذي ساعدني أثره الطيب من قبل. ولكني لم أتعافَ بعد، وأشعر بثقل في الكتابة. لذا عليك أن ترى سطوري القليلة أكثر مما هي عليه فعلاً .

بطبيعة الحال يجب أن تعرف أنك ستسعدني دائمًا بكل خطاب ترسله، ولكن عليك أن تكون متسامحًا مع الرد، الذي ربما سيتركك كثيراً صفر اليدين؛ لأنه في الأساس، وخاصة في أعمق الأشياء وأهمها، نكون وحيدين تمامًا، وبالتالي كي يستطيع أحدنا أن ينصح الآخر أو أن يساعده، يجب أن يحدث الكثير وينجح الكثير، يجب أن تتوافق توليفة كاملة من الأشياء، حتى ينجح ذلك الأمر مرة .

أردت فقط أن أقول لك اليوم أمرين :

السخرية: لا تتركها تسيطر عليك، وخاصةً في اللحظات التي يغيب فيها الإبداع . أما في لحظات الإبداع فحاول أن تستغلها، بوصفها

وسيلة إضافية لفهم الحياة. إذا استخدمتَها بنقاء فستظل نقية ولن يكون عليك أن تخجل منها. وإذا شعرت أنك ألفتها أكثر مما ينبغي، فاخشَ تلك الألفة المتزايدة وأدِر دفتك صوب أمَور عظيمة وجادة تبدو السخرية أمامها ضئيلة وَعاجزة. ابحث عن أعماق الأشياء، فهناك لا يمكن أن تسقط السخرية أبدًا . وعندما تقترب من حافة ذلك الأمر الكبير، اختبر في الوقت ذاته إذا كانت طريقة الفهم هذه تنبع من ضرورة كامنة في كيانك. لأنها تحت تأثير الأمور الجادة إما ستغيب عنك (إذا كانت شيئًا عارضًا)، وإما ستصبح (إذا كانت فعلاً متأصلة فيك) أقوى، لتتحول إلى أداة جادة تندرج في سلسلة الوسائل التي عليك أن تصيغ بها فنَّك .

والأمر الثاني الذي أود إخبارك إياه اليوم هو :

من بين جميع كتبي لا يوجد سوى القليل الذي لا غنى لي عنه، واثنان منها دائمًا بين متعلقاتي حيث كنت، حتى هنا: الكتاب المقدس، وكتب الشاعر الدنماركي الكبير «ينس بيتر ياكوبسن ». خطر ببالي أن أسألك إن كنت تعرف كتبه. يمكنك الحصول عليها بسهولة، لأن جزءًا منها ظهر في نقل جيد جدًّا إلى الألمانية في سلسلة «ريكلام أونيفرزال بيبليوتيك». عليك بشراء كتاب «ست قصص» لـ«ياكوبسن»، وكذلك روايته «نيلس لونه » ؛ وابدأ بأول قصة في الكتاب الأول، التي تحمل عنوان : «في الصباح». سيغشاك عندها عالمٌ، بسعادته، وثرائه، وعظمته التي يعجز المرء عن فهمها. عش بعض الوقت في تلك الكتب، تعلَّم منها ما تراه جديرًا بالتعلم، ولكَن قبل كل شيء أحبَّها. هذا الحب

سيعود عليك آلاف المرات، وأيًّا ما كان المسار الذي ستسير فيه حياتك ـ فأنا متيقن من أنه سيتخلل نسيج تطورك كواحد من أهم الخيوط من بين كل خيوط خبراتك وإحباطاتك وابتهاجاتك .

وإذا كان عليَّ أن أقول ممن تعلمتُ شيئًا عن جوهر الإبداع، وعمقه، وسرمديته، فلن أجد سوى اسمين يمكنني ذكرهما: «ياكوبسن»، الشاعر العظيم العظيم، و«أوجوست رودين»، النحَّات الذي لا مثيل له بين جميع الفنانين الأحياء .

أتمنى لك النجاح حيثما قادتك قدماك !

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

«فياريدجو» بالقرب من «بيزا» (إيطاليا) ،

في 23 أبريل 1903

لقد أسعدتَني كثيراً، سيدي العزيز، بخطابك الذي وصلني بالتزامن مع عيد الفصح، لأن خطابك ينم بالكثير الطيب عنك، كما أسعدَتني الطريقة التي تحدثتَ بها عن فن «ياكوبسن» العظيم الرقيق، وهو ما أكد لي أني لم أخطئ عندما ربطت بين حياتك وبين ما تتسم به من زخم .

والآن سيكون «نيلس لونه» نافعًا لك، إنه كتاب الأمجاد والانتكاسات؛ وكلما أعاد المرء قراءته بدا كل ما في الحياة موجودًا فيه، من أقل النسمات إلى المذاق الكامل الكبير لثمارها الثقيلة. لا يوجد فيه شيء مما لا يمُكن فهمه أو اختباره أو اكتشاف خفوته المُرتعش في غيابات الذاكرة، لا يوجد موقف أقل من أن يُحكىَ، وأصغر حدَث يتفتح وكأنه قدَر، ويبدو القدَر ذاته وكأنه نسيج رائع وواسع، وكل خيط منه يقود خطاه عدد لانهائي من الخيوط الرقيقة ويضعه بجوار الخيوط الأخرى وتمسك به وتحمله مئات الخيوط الأخرى. ستجد سعادة كبيرة في قراءة هذا الكتاب لأول مرة، وستسير عبر مفاجآته التي لا تُعد ولا تُحصى وكأنك تسير بين جَنَبات حلم جديد. ولكن يمكنني أن أخبرك بأن المرء يكون بعد ذلك أيضًا، وفي كل مرة، الشخص المندهش نفسه حين يتجول بين صفحات تلك الكتب، وأنها لا تفقد شيئًا من قوتها الرائعة ولا تتخلى عن شيء من جمالها الخلاب الذي تغمر به قارئَها في أول مرة .

يزداد المرء استمتاعًا بها وشكرًا لها، ويصبح بطريقة ما أفضل وأبسط في رؤية الحياة، وأعمق في الإيمان بها، كما يصبح أكثر طوبيةً وعظمة في الحياة .

وبعد ذلك عليك أن تقرأ كتاب أقدار «السيدة ماري جروبه» وأشواقها، وكذلك رسائل «ياكوبسن» ويومياته وأعماله غير المكتملة، وأخيراً قصائده التي (إن كانت قد تُرجمت بصورة مناسبة) تعيش في نغمات خالدة . (وأنصحك في ذلك بشراء المجموعة الكاملة الجميلة لأعمال «ياكوبسن»، التي تضم ذلك كله، وقد ظهرت في ثلاثة أجزاء عن دار نشر «أويجن ديدريكس» في «لايبزيج»، وثمنها حسب علمي خمسة أو ستة ماركات للجزء).

أما عن رأيك في «هنا يجب أن توضع زهور...» (وهو عمل يتسم ببراعة وبشكل أدبي لا يمكن مضاهاتهما) فمعك كل الحق طبعًا في رأيك الذي يغاير رأي كاتب المقدمة. واسمح لي هنا أن أعبر عن رجائي : اقرأ أقل كمٍّ ممكن من أعمال النقد الجمالي، فهي إما آراء متحيزة متحجرة فقدت جدواها في تحجرها الميت، وإما تلاعُب ماهر بالكلمات يجعل هذا الرأي يربح اليوم وغدًا يفوز عليه نقيضه. تتسم الأعمال الفنية بوحدة أبدية، وأقل ما يمكن أن يلامسها هو النقد. وحده الحب يمكنه إدراكها والحفاظ عليها ومعاملتها معاملةً عادلة. أعط نفسك وإحساسك في كل مرة الحق فيما يتعلق بمثل تلك المعالَجات والنقاشات والمقدمات؛ وإن لم يكن معك الحق فعلاً، فإن النمو الطبيعي لحياتك الداخلية سيصبح بطيئًا وسيقودك مع مرور الوقت إلى

معارف أخرى . دع لأحكامك التطور الساكن الهادئ الخاص بها، الذي يجب أن يأتي ـ وشأنه في هذا شأن أي تقدُّم ـ من أعماق الداخل ولا يمكن لشيء أن يدفعه أو يُسرع خطاه . فكل شيء يحتاج أولاً إلى فترة حمل ومن ثَم يولد. أن تدع كل انطباع وكل نواة شعور تكتمل في ذاتها، في الظلام، فيما لا يمكن التعبير عنه بالكلام، ولا إحاطته بالوعي، ولا الوصول إليه بالعقل؛ ثم أن تنتظر في خشوع عميق وصبر ساعة ميلاد وضوح جديد: هذا وحسب ما يمكن تسميته «الحياة الفنية»، سواء على مستوى الفهم أو الإبداع .

ولا تسري على ذلك حسابات الزمن، لا توجد سنة، وعشر سنوات كأنها لاشيء، أن تكون فنانًا يعني : ألا تحسب ولا تعد؛ أن تنضج مثل الشجرة التي لا تتعجل عصارتها وتقف مطمئنة في عواصف الربيع من دون أن تخشى ألا يعقبه صيف. فالصيف سيأتي، ولكنه لا يأتي إلا للصابرين الذين يعيشون وكأن الخلود يقف أمامهم مطمَئنًّا في سكون واتساع. أتعلم كل يوم، وأتعلم وسط آلام أنا ممتنٌّ لها، أن: الصبر هو مدار الأمر !

*

«ريشارد ديمل»: عندما أقرأ كتبه (وكذلك عندما أقابل شخصًا أعرفه بشكل عابر) وأجد إحدى صفحاته الجميلة، أخشى الصفحة التي تليها التي قد تُفسد كل شيء وتحوِّل الجدير بالحب إلى شيء لا قيمة له. لقد أحسنت وصفه إذ قلت : «يعيش ويكتب بشبق ». وبالفعل تقف

التجربة الفنية على مقربة غير معقولة من التجربة الجنسية، بما تنطوي عليه من ألم ورغبة، حتى إن كلتا الظاهرتين ليستا في الحقيقة إلا شكلين مختلفين للشوق نفسه واللذة نفسها. ولو صح للمرء أن يقول: «الجنس»، بدلاً من : «الشبق»، الجنس بمعناه الكبير الواسع النقي الذي لا تُلوث صورته الادعاءات الخاطئة للكنيسة، فإن فنه سيكون عظيمًا جدًّا وذا أهمية لا نهاية لها. طاقته الشعرية هائلة وقوية مثل غريزة أساسية، ولها إيقاعات خاصة لا مرجعية لها إلا نفسها، وتنطلق من داخله وكأنها تتدفق من جبال .

ولكن يبدو أن تلك الطاقة لا تكون دائمًا صادقة ومن دون اصطناع. (ولكن هذا أيضًا من أصعب الاختبارات التي يمر بها المبدع، إذ يجب عليه أن يظل دائمًا غير واعٍ لخير فضائله وغير مدرك لها، إذا كان لا يريد أن يُفقدها عفويتها وعذريتها!). وعندما تهيج صاخبةً من خلال كيانه وتصل إلى مشاعره الجنسية، فإنها لا تجد ذلك الإنسان البريء الذي تحتاجه. لا تجد عالَم جنس ناضجًا ونقيًّا، بل عالَمًا غير إنسانيٍّ بما يكفي، عالَمًا ذكوريًّا فقط، عالَم شبق وصخب وأرق، مُحمَّلاً بالأحكام المُسبقة القديمة وبسلوكيات بلاط النبلاء التي زيَّف بها الرجل الحب وأثقله. ولأنه يحب بوصفه رجُلاً وحسب وليس بوصفه إنسانًا، لذا يوجد في إحساسه بالجنس شيء ضيق، وشرس ظاهريًّا، وحاقد، وزمني، وغير أبدي، يُقلص فنَّه ويجعله مزدوج المعنى وموضع شك. ليس فنه من دون شائبة، بل يتسم بالوقتية والشغف، ولن يبقى منه ويستمر سوى القليل. (ولكن معظم الفن ينطبق عليه ذلك الوصف!). على الرغم من ذلك، يمكن للمرء أن يستمتع جدًّا بما هو عظيم في فن

«ديمل»، ولكن من دون أن يفقد نفسه فيه ويصبح أحد أتباع عالَمه هذا، المليء بالقلق الشديد والخيانة الزوجية والحيرة، والبعيد تمامًا عن الأقدار الحقيقية التي تؤلم أكثر من هذه الكآبات المؤقتة، ولكنها تمنح أيضًا فرصًا أكبر للعظمة وشجاعة أكبر لمواجهة الأبدية .

وأخيراً فيما يتعلق بكتبي، فأود لو أرسلها لك جميعًا، لعلك تجد فيها ما يمُتعك، لكني فقير جدًّا، وكتبي لا تعود ملكي بمجرد ظهورها. أنا نفسي لا أستطيع شراءها، ولا إهداءها ـ كما أرغب كثيراً ـ لأولئك الذين سيظهرون لها شيئًا من الحب .

لذلك سأكتب لك على ورقة عناوين أحدث ما ظهر من كتبي (ودور نشرها؛ الأحدث فقط، فقد نشرت إجمالاً 12 أو 13 كتابًا)، ولا يسعني يا عزيزي إلا أن أترك لك أن تطلب منها كتابًا كلما تيسر .

يسعدني أن تكون كتبي بين يديك .

وداعًا

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

حاليًّا في «فوربسفيده» بالقرب من «بريمن » ،

في 16 يوليو 1903

غادرت باريس قبل عشرة أيام تقريبًا، وأنا أشعر بمعاناة حقيقية وإرهاق، وسافرت إلى سهل شمالي كبير، عسى أن تُعيد إليَّ رحابته وهدوؤه وسماؤه صحتي مجددًا. ولكني سافرت تحت مطر طال زمن انهماره، ولم يبدأ في الإقلاع قليلًا عن الأرض المضطربة العًاصفة إلا اليوم، وأنتهز هذه اللحظة الأولى من الضياء كي أتوجه إليك بالتحية، سيدي العزيز .

عزيزي السيد «كابوس»: لقد تركت إحدى رسائلك فترة طويلة من دون رد، ليس لأني نسيتها، بل على العكس، فقد كانت من تلك النوعية التي يعيد المرء قراءتها كلما وجدها بين رسائله، وقد تعرفت إليك من خلالها وكأني أقف على مقربة كبيرة منك. كانت تلك الرسالة المؤرَّخة بالثاني من شهر مايو، وبالتأكيد أنت تذكرها. عندما أقرأها، كما أفعل الآن، في ظل الهدوء الكبير في هذا المكان البعيد، يؤثر فيَّ قلقك الجميل على الحياة، أكثر مما تأثرت به في باريس، حيث يُدوي كل شيء ويخفُت بطريقة مختلفة بسبب الصخب الهائل الذي تهتز منه الأشياء. وهنا، حيث تحيط بي أرض شاسعة تطويها الريح القادمة من البحور، هنا أشعر بأنه لا يوجد إنسان يمكنه تقديم إجابة لك عن تلك الأسئلة والمشاعر التي لها في أعماقها حياتها الخاصة، لأنه حتى من هم الأفضل يخطئون أيضًا في اختيار الكلمات حين يريدون التعبير عن

الأمور الكامنة وعما يكاد لا يُقال. ولكني أعتقد، مع ذلك، أنك لا يجب أن تبقى من دون حل عندما تتمسك بأشياء تشبه تلك التي تسكن عيناي إليها الآن. إذا تمسكت بالطبيعة، وبالأمور البسيطة الصغيرة فيها التي يكاد لا يراها أحد، والتي يمكن أن تُصبح، على غير توقع، كبيرة ولا محدودة، إذا تحليت بذلك الحب للأمور الصغيرة وحاولت، بوصفك خادمًا متواضعًا، كسب ثقة ما يبدو فقيراً، فإن كل شيء سيصبح بالنسبة إليك أسهل، وأكثر توحدًا وتصالحًا مع نفسه بطريقة ما، ربما ليس على مستوى العقل، الذي سيُترك مندهشًا، ولكن في أعماق وعيك ويقظتك ومعرفتك. إنك لا تزال شابًّا، تقف على أعتاب البدايات، ولعلي أرجوك بكل ما أستطيع، يا عزيزي، أن تتحلى بالصبر في مواجهة كل ما لم تجد له حلًّا في قلبك وأن تحاول أن تحب حتى الأسئلة نفسها وكأنها أدراج مغلقة أو كتب مكتوبة بلغة شديدة الغرابة. لا تبحث الآن عن الإجابات التي لا يمكن أن تُعطى لك، لأنك لن تستطيع أن تحياها. والأمر يتعلق بأن تعيش كل شيء. عش الأسئلة الآن، ربما يجعلك ذلك تعيش يومًا ما، بالتدريج، في الإجابة، من دون أن تلاحظ. ربما تكون بداخلك القدرة على البناء والتشكيل بوصف ذلك طريقة فريدة ونقية للحياة؛ رَبِّ نفسَك على ذلك، ولكن خذ ما يأتي بثقة كبيرة، وإذا جاء ذلك من محض إرادتك، ومن ضرورةٍ ما في داخلك، فتقبَّله ولا تكره شيئًا. الجنس صعب؛ نعم. ولكن الصعب هو ما يتم تحميلنا به، وتقريبًا كل شيء جاد يكون صعبًا، وكل شيء جاد. وإذا فهمت ذلك واستطعت، انطلاقًا من طبيعتك وطريقتك وخبراتك وطفولتك وقوتك، أن تُكوِّن علاقة خاصة بالجنس (من دون تأثر بالعادات والتقاليد) فلن يكون عليك القلق من أن تفقد نفسك أو أن

تتعامل مع أغلى ما تملك تعاملاً غير ملائم .

إن الرغبة الجسدية هي مُعايشة حسية لا تختلف عن المشاهدة الخالصة أو الإحساس الخالص الذي تملأ به اللسانَ ثمرةٌ جميلة؛ إنها خبرة عظيمة لانهائية تُعطى لنا، إنها معرفةٌ بالعالم، وهي تمام كل معرفة وبريقها. وليس الأمر السيئ هو تلقينا لها، بل السيئ هو إساءة استغلال الجميع تقريبًا لهذه الخبرة وتضييعهم لها، واستخدامها كعامل إثارة في مواضع حياتهم التي يشعرون فيها بالتعب، واستخدامها كعامل تشتيت وليس كعامل جمع يؤدي إلى لحظات القمة. لقد حوَّل البشر الطعام أيضًا إلى شيء آخرً: وجود أزمة في جانب وفائض في جانب آخر عكَّر صفو هذا الاحتياج، وهكذا تعكَّرت أيضًا كل الاحتياجات العميقة البسيطة التي تتجدد من خلالها الحياة. ولكن يمكن للفرد أن ينقيها لنفسه ويعيشها بصفاء (وإن لم يكن الفرد الذي يعاني التعلق بشدة، فالفرد الذي يعيش وحيدًا)؛ يمكنه أن يتذكر أن كل أشكال الجمال في الحيوان والنبات ما هي إلا صورة هادئة مستمرة من الحب والشوق، ويمكنه أن يرى الحيوان، كما يرى النبات، كيف يتوحد ويتكاثر وينمو بصبر وطاعة، وليس لرغبة فيزيائية، وليس لمعاناة فيزيائية، بل استجابة لضرورات أكبر من الشهوة والمعاناة وأعنف من الإرادة والمقاومة. آه لو استطاع الإنسان استقبال ذلك السر، الذي تعج به الأرض حتى أصغر أشيائها، بتواضع أكبر، ولو استطاع حمله وتحمله بجدية أكثر، والشعور بثقله بدلاً من الاستخفاف به. لو تعامل بخشوع مع خصوبته التي هي الشيء نفسه سواء بدت عقلية أو جسدية، لأن الإبداع العقلي أيضًا ينشأ من الجسدي، وهو معه كيان واحد، ولكنه بمثابة تكرار أكثر هياجًا

ودوامًا وخفوتًا لرغبة الجسد. «فكرة أن يكون المرء مبدعًا ويُنجب ويُنشئ» لا تكون شيئًا من دون التأكيد والتحقيق المستمرَّيْن الكبيرَيْن في العالم، لا تكون شيئًا من دون موافقة الأشياء والحيوانات، المتكررة آلاف المرات، ولذلك فإن متعته بهذا الجمال والثراء الذي لا يوصف، لأنه ينطوي على ذكريات موروثة من التناسل وإنجاب الملايين. تعيش في أفكار المبدع آلاف من ليالي الحب المنسية، وتملأه بالعظمة والعلو. وهؤلاء الذين يجتمعون ويتداخلون في غياهب الشهوة في الليالي يقومون بعمل جاد ويجمعون الحلاوة والعمق والقوة لأغنية شاعر سيأتي من بعدهم حين ينهض ليتغنى بمُتع لا يحويها الكلام. كما يستحضرون المستقبل؛ حتى لو أخطأوا واجتمعوا على غير هدى فإن المستقبل سيأتي، سينهض شخص جديد، وبمحض الصدفة، التي تبدو وكأنها تتحقق هنا، يستيقظ القانون الذي يجعل حيوانًا منويًّا قادرًا على المقاومة يخترق البويضة التي تنفتح له. لا تدع الأمور السطحية تخدعك، ففي الأعماق يصبح كل شيء قانونًا. والذين يعيشون السر بطريقة خاطئة وسيئة (وهم كثيرون) لا يضيعونه إلا على أنفسهم ويعطونه لغيرهم وكأنها رسالة مغلقة من دون أن يعرفوا. ولا تنخدع بكثرة الأسماء وتعقيد الحالات، ربما يكون فوق الكل أمومة عامة كبيرة بوصفها شوقًا مشتركًا. جمال العذراء، جمال كائن (كما قلت أنت بطريقة جميلة) «لم يؤدِّ شيئًا حتى الآن» هو أمومة تستشعر وجودها وتتجهز وتخاف وتتشوق. وجمال الأم يتجلى في أمومة تخدم، والعجوز تحمل ذكريات كبيرة. وتوجد في الرجل أيضًا أمومة، على ما أعتقد، أمومة جسدية وروحية؛ فعملية الإبداع لديه تُعَد بمثابة الولادة بطريقة ما، والولادة تكون حين تفيض أعماقه بشيء جديد. وربما يكون بين

الجنسين قرابة أقوى مما نعتقد، وربما يكمن التحديث الكبير للعالم في أن يتوقف الرجال والنساء، بعد أن يتحرروا من المشاعر الخاطئة والشهوات، عن البحث بعضهم عن بعض بوصفهم أضدادًا وإنما بوصفهم إخوة وجيرانًا، ويجتمعون بوصفهم بشرًا، كي يقوموا ببساطة معًا بجدية وصبر بحمل الجنس الثقيل الذي قُدِّر لهم .

ولكن كل ما قد يصبح ممكنًا يومًا ما، بوسع الفرد الوحيد أن يجهزه ويَبنيه الآن بيديه اللتين قلما تُخطئان. ولذلك، يا عزيزي، عليك أن تُحب وحدتك، وأن تتحمل الألم الذي تتسبب لك فيه، وأن تُغني شكواك بنغمات جميلة، لأن القريبين منك بعيدون، كما قُلتَ، وهذا يوضح أن الحياة بدأت تتسع من حولك. وعندما يصبح القرب منك بُعدًا فإن الاتساع لديك سيصل إلى ما تحت النجوم وسيكون ضخمًا جدًّا؛ استمتع برحلة نمُوك التي لا يمكن أن تصطحب فيها أحدًا، وكُن طيبًا مع أولئك الذين ستخلفهم من ورائك، وتَعامل معهم بثقة وهدوء ولا تعذبهم بشكِّك وحيرتك ولا تصدمهم بثقتك أو بسعادتك التي لن يستطيعوا فهمها. ابحث عن أي أمر مشترك بسيط وصادق يجمعك بهم، وليس من الضروري أن يتغير ذلك الأمر عندما تتغير أنت وتصبح مختلفًا، أحب فيهم الحياة في شكل غريب وارعَ كبار السن الذين يخشون الوحدة التي تألفها أنت. وتجنب تغذية المآسي التي تضرب بين الآباء والأبناء لأنها تستهلك قوة الأبناء وتستهلك حُب الكبار الذي يؤثر ويدفئ حتى لو لم يُفهم. لا تطلب منهم النصيحة ولا تنتظر الفهم؛ ولكن عليك أن تؤمن بحُب مخزون لك مثل الإرث، وثِق في أن ذلك الحب ينطوي على قوة وبَرَكة لن تكون مضطرًّا للخروجَ من كنفها حتى

تذهب بعيدًا بعيدًا !

إنه لأمر طيب أن تؤدي بك السبل إلى العمل في مهنة تجعلك مستقلاً ومعتمدًا على نفسك بالكلية وبكل معنى للكلمة. انتظر بصبر لترى ما إذا كانت حياتك في أعماقها تشعر بأنها مُقيدة بسبب شكل هذه المهنة. أنا أعتبرها صعبة جدًّا وذات متطلبات عالية جدًّا، لأنها تخضع لأعراف كثيرة وتكاد لا تدع مجالاً لتكوين رؤية شخصية عن مهامها. ولكن وحدتك ستكون لك أيضًا وسط الأحداث شديدة الغرابة ملجأً ووطنًا، وانطلاقًا منها ستجد جميع الطرق .

فلتصحبك أطيب أمنياتي، وثقتي .

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

روما، في 29 أكتوبر 1903

السيد العزيز والمحترم،

لقد تلقيت رسالتك الصادرة بتاريخ 29 أغسطس وأنا في «فلورنس» ـ والآن وبعد مُضي شهرين كاملين ها أنا ذا أكتب إليك. سامحني على هذا التأخير، ولكني لا أحب كتابة الرسائل وأنا أرتحل، لأني أحتاج لكتابة الرسائل أكثر من أدوات الكتابة الضرورية: أحتاج إلى الهدوء والوحدة وساعة لا يطغى عليَّ فيها الشعور بالغربة .

لقد وصلنا إلى روما قبل ستة أسابيع، في وقت كانت فيه روما فارغة وساخنة وتعلوها الحُمى التي تسيء إلى سمعتها دائمًا، وقد جعل هذا، بالإضافة إلى بعض الصعوبات المتعلقة بالتجهيزات، حالة القلق من حولنا لا تنتهي، وجثت على صدورنا الغربة لِما فيها من ثقل على النفس لفراق الوطن. بالإضافة إلى ذلك فإن رَوما يكون لها تأثير (لمن لا يعرفها بعد) حزين كئيب في الأيام الأولى، وهذا بسبب أجواء المتحف الكئيبة والغائمة التي تنفثها تلك المدينة من خلال كثيرٍ من الحقب الماضية التي تستحضرها وتحافظ عليها بصعوبة (وتعيشً عليها حقبة قصيرة من الحاضر)، من خلال مبالغة تدعمها أسماء لا نعرفها وأخرى لعلماء وفقهاء لغة ويقلدها المرتحلون إلى إيطاليا متأسين في ذلك بالأوائل، مبالغة في تقييم أشياء مشوهة وتالفة، والتي هي في الأساس ليست أكثر من بقايا حملتها لنا الصدفة من زمن آخر وحياة

أخرى لا هي حياتنا ولا يجب أن تصبح كذلك. وأخيراً، وبعد أسابيع من المقاومة اليومية، يجد المرء نفسه، على الرغم من حيرته، يستعيد المرء ذاته ويقول في نفسه: لا، لا يوجد هنا جمال تفتقر إليه ما عداه من الأماكن، وكل تلك الأشياء التي انبهرت بها أجيال وأجيال، وامتدت إليها يد الأتباع بالتحسين والإكمال، لا معنى لها، ليست شيئًا ولا قلب لها ولا قيمة؛ ولكن يوجد هنا كثيرٌ من الجمال لأنه يوجد جمال كثير في كل مكان. ماء مُشبَع بالحياة لا نهاية له يتدفق عبر الجداول القديمة إلى المدينة الكبيرة، ويتراقص في ميادين كثيرة على الأطباق الحجرية البيضاء ويتسع في أحواض واسعة ورحبة، ويملأ خريره النهار ويرتفع صوته في الليل الذي يمتد هنا وتملأ سماءه النجوم والنسائم اللطيفة. وتوجد هنا حدائق أيضًا، حدائق على شكل ممشى تُسيجه الأشجار، وعلى شكل مدرجات، مدرجات من تصميم «ميكلانجلو»، مدرجات على غرار الماء المُنحدر، تتسع عند مصبِّها درجة بعد درجة وكأنها موجة تتبعها موجة. يلملم المرء خلجات نفسه من خلال مثل تلك الانطباعات، ويستعيدها من ذلك الكثير المُعقد الذي يتكلم ويثرثر (ويا له من ثرثار!)، ويتعرف ببطء على تلك الأشياء القليلة جدًّا، التي تمتد فيها أبدية يمكن للمرء أن يحبها، ووحدة يمكن للمرء أن يشاركها في صمت .

ما زلت أسكن على تلة «الكابيتول»، ليس ببعيد عن تمثال الفارس الذي ظل محفوظًا لنا من الفن الروماني: تمثال «ماركوس أوريليوس»، ولكن بعد أسابيع سأنتقل إلى غرفة هادئة ومتواضعة في تعريشة قديمة تائهة في أعماق متنزه كبير يُخفي المدينة وضوضاءها وأحداثها المفاجئة.

سأسكن هناك طوال الشتاء وأستمتع بالهدوء العظيم، الذي أتوقع أن يمنحني ساعات جيدة من العمل الدؤوب ...

ومن هناك، حيث سأصبح في بيتي، سأكتب لك خطابًا أطول، وسأعرج فيه أيضًا على كتاباتك. لكن اليوم عليَّ أن أكتفي بأن أخبرك (وربما كان من الظلم ألا أقول لك ذلك في وقت مُبكر) بأن الكتاب الذي أعلمتني بشأنه في خطابك (والذي من المُزمع أن يضم أعمالاً لك) لم يصلني هنا. هل عاد إليك، ربما من «فوربسفيده»؟ (لأنه لا يُسمح بإعادة إرسال الطرود إلى خارج البلاد). هذا أنسب احتمال أتمنى أن تؤكده لي. أتمنى ألا يتعلق الأمر بضياع الكتاب ـ وهو ما لا يُعَد استثناء بالنظر إلى ظروف عمل البريد الإيطالي ـ للأسف .

كنت أود تلقي ذلك الكتاب (كما يسعدني تلقي أي شيء يعطي إشارة منك)؛ ويسعدني أن أقرأ الأبيات التي كتبتها في تلك الأثناء وأن أُعيد قراءتها ومعايشتها (هذا إذا أمنتني عليها)، بأكبر قدر من الجودة والحميمية أستطيعه. مع خالص تمنياتي وتحياتي

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

روما، في 23 ديسمبر 1903

عزيزي السيد «كابوس » ،

لا يجب أن يمر عيد الميلاد المجيد، وأنت تشعر بالوحدة في وسط الأعياد أكثر من أي وقت آخر، من دون أن تصلك مني تحية. ولكن إن لاحظت أن الوحدة كبيرة، لتسعد بذلك، وإلا فما قيمة الوحدة التي لا تنطوي على عظمة (ولعلك تسأل نفسك ذلك)؟ لا يوجد إلا وحدة واحدة، وهي عظيمة ولا يسهل تحملها، ويمر تقريبًا الجميع بأوقات يرغب فيها تبديلها مقابل أي شيء مُشترك مهما كان سطحيًّا ورخيصًا، مقابل أقل توافق ظاهري مع أول من يراه جيدًا أو مع أقل من يستحق ذلك... ولكن ربما تكون تلك تحديدًا الساعات التي تنمو فيها الوحدة، لأن نموها مؤلم مثل نمو الغلام وحزين مثل بداية الربيع. ولكن لا تدع ذلك يُحيرِّك. إن الذي يتسبب في الأزمة هو: الوحدة، الوحدة الداخلية الكبيرة. أن يستبطن المرء في داخل نفسه ساعات طويلة ولا يقابل أحدًا ـ هذا ما يجب أن يكون قادرًا على الوصول إليه. أن يكون المرء وحيدًا كما كان يومًا وهو طفل، حين كان الكبار يتحركون من حوله وهم يعتركون أشياء بدت وقتها مهمة وكبيرة، لأن الكبار بدوا منشغلين، ولأن المرء لم يُدرك شيئًا مما يفعلون .

وعندما يكتشف المرء يومًا أن مشاغلهم بائسة ومهَنهم جامدة ولم تعد مرتبطة بالحياة، فلماذا لا يستمر المرء في النظر إلَى الحياة نظرة الطفل

أو الغريب، من أعماق العالم الخاص به، من بُعد الوحدة الخاصة به، التي هي في حد ذاتها عمل ومرتبة ومهنة؟ لماذا نستبدل الرفض والاحتقار بـ«عدم الفهم» الحكيم لدى الطفل؟ إن عدم الفهم يعني أن يكون المرء وحيدًا، أما الرفض والاحتقار فيعنيان المشاركة فيما يرغب المرء في الانفصال عنه عن طريقهما .

فكِّر، يا سيدي العزيز، في العالم الذي تحمله بداخلك، وسمِّ ذلك التفكير كيف شئت: يمكن أن يكون تذكُّر الطفولة الخاصة بك، أو اشتياقًا إلى مستقبلك الخاص، ولكن فقط انتبه لما سينهض بداخلك واجعله فوق كل شيء تراه حولك. إن ما يختلج بداخلك يستحق كل الحب، وعليك أن تعمل عليه بطريقة ما، وألا تُضيِّع كثيراً من الوقت والشجاعة في توضيح موقفك للناس. من يقول لك إذًا إن لديك موقفًا؟ أعرف، إن مهنتك صعبة وتتعارض تمامًا مع شخصيتك، وتوقعت شكواك مُسبقًا وعرفت أنها ستأتي. أما وقد صدرت عنك فلا يمكنني أن أهدئ من روعك، وإنما فقط أن أنصحك بأن تفكر ما إذا كانت جميع المهن هكذا، كلها متطلبات وعداوات ضد الفرد، غارقة في الكراهية تجاه أولئك الذين وجدوا سبيلهم، بصمت وإصرار، إلى واجبهم الرصين. إن الحال التي يجب عليك أن تعيشها الآن ليست أكثر صعوبةً، فيما تنطوي عليه من ارتباطات وأحكام مُسبقة وأخطاء، مقارنة بكل الأحوال الأخرى، وإن وُجدت أحوال تُظهر حرية أكبر فلا يوجد منها ما يتسم في داخله بالرحابَة والسعة ويقف في علاقة مع الأشياء الكُبرى التي تتكون منها الحياة الحقيقية. فقط الفرد الوحيد يكون كالشيء الموضوع تحت القوانين العميقة، وعندما يخرج أحدٌ إلى

النهار فإنه ينهض، أو ينظر إلى الخارج إلى المساء الممتلئ بالأحداث، وعندما يشعر بما يحدث فإن جميع الأحداث تسقط عنه كما تسقط عن الميت، مع أنه يقف وسط الحياة الصاخبة. إن ما عليك معايشته الآن، يا سيد «كابوس»، بوصفك ضابطًا في الجيش، كنت ستعايشه في أيٍّ من الوظائف الأخرى، نعم، حتى لو كنت، بغض النظر عن أي منصب، لا تسعى إلا لاحتكاك بسيط ومستقل مع المجتمع، فإن ذلك لم يكن ليوفر عليك ذلك الإحساس بالضيق. إن الأمر كذلك في كل مكان؛ إلا أن هذا ليس مدعاة للخوف أو الحزن؛ إذا لم توجد قواسم مشتركة بين الناس وبينك، فحاول أن تكون على مقربة من الأشياء التي لن تغادرها؛ ما زالت الليالي موجودة والرياح التي تتخلل الأشجار وتعبر فوق بلدان كثيرة؛ ما زال بين الأشياء، ولدى الحيوانات، كثيرٌ من الأحداث التي مسموحٌ لك بمشاركتها؛ والأطفال ما زالوا موجودين على الحال التي كنت أنت عليها حين كنت طفلًا، حزانى وسُعداء. وإن كنت تفكر في طفولتك فعش مجددًا وسطهم، بين الأطفال الوحيدين، أما الكبار فهم لا شيء وكَرامتهم لا أهمية لها .

وإذا اشتد عليك الحزن والعذاب حين تفكر في الطفولة، وفي الأمور البسيطة والساكنة التي ترتبط بها، لأنك لم تعُد قادرًا على الإيمان بالرب الموجود في كل مكان فيها، فاسأل نفسك، عزيزي السيد «كابوس»، ما إذا كنت فعلًا فقدت الرب. أليس الأمر بالأحرى أنك لم تجده بعد؟ إذ متى يجب أن يكون ذلك قد حصل؟ أتعتقد أن طفلًا يمكنه أن يحمل الرب في داخله، وهو من يحمله الرجال بصعوبة في داخلهم وتنوء بحمله العجائز؟ أتعتقد أن من يجده فعلًا يمكن أن يفقده كما يفقد

حجرًا صغيراً؟ أم أنك لا ترى أيضًا أن من يجده لا يمكن بعدها إلا أن يكون مفقودًا منه؟ ولكنك إذا أدركت أنه لم يكن موجودًا في طفولتك ولا قبلها، وإذا استشعرت أن المسيح قد خدعه اشتياقه، وأن محمدًا خدعه افتخاره، وإذا شعرت، مصدومًا، أنه ليس موجودًا الآن، في هذه الساعة التي نتحدث عنه فيها، فما الذي يعطيك الحق إذًا في أن تفتقده وتبحث عنه، وهو الذي لم يكن أبدًا موجودًا، وكأنه الآن مفقود؟

لماذا لا تفكر في أنه ذلك القادم، الآتي منذ الأزل، المستقبلي، الثمرة النهائية لشجرة نحن أوراقها؟ ما الذي يمنعك أن تستشرف ميلاده في الأزمان القادمة، وأن تحيا حياتك وكأنها يوم مؤلمٌ جميل في قصة حملٍ كبير؟ ألا ترى كيف أن كل ما يحدث هو دائمًا بداية، ولعلها تكون بدايته، لأن البداية تكون دائمًا شديدة الجمال؟ إذا كان هو الأكمل، أفلا يجب أن يكون قبله ما هو أقل، حتى يتمكن من اختيار ذاته من الكُل والوفرة؟ ألا يجب أن يكون هو الآخر حتى يجمع الكل في ذاته، وأي معنى يكون لنا إذا كان هو، الذي نطَلبه، قد مضى بالفعل؟

كما يحمل النحل العسل، نُخرج نحن الأحلى من كل الأشياء ونصنع الرب. يمكن أن نبدأ بأقل الأشياء، بل وبأقلها تجليًا (إن كان ذلك سيحدث بدافع الحب وحسب)، بالعمل وبالراحة التي تتبعه، بصمت أو بسعادة بسيطة وحيدة، بكل الأشياء التي نفعلها وحدنا من دون مشاركين أو أنصار، نبدأه، نبدأ ذلك الذي لن نكون حين يكون، كما لم يستطع أجدادنا أن يكونوا حين أصبحنا . ومع ذلك هؤلاء الذين مضوا من زمن بعيد ما زالوا موجودين بداخلنا كفطرة، كعبء على أقدارنا،

كدم يجري في عروقنا، وكإيماءة تخرج من أعماق زمن مضى .

هل يوجد ما يمكنه سلبك الأمل في ذلك المستقبلي البعيد الخارج عن كل شيء؟

احتفل، عزيزي السيد «كابوس»، بعيد الميلاد المجيد بهذا الشعور الورع بأنه ربما يحتاج منك ذلك الخوف من الحياة تحديدًا حتى يبدأ؛ وخصوصًا في هذه الأيام التي تعيش فيها تحولًا، ربما في هذا الوقت الذي يعمل فيه كل ما فيك على صنعه، كما كنت ذات يوم وأنت طفل تعمل على صنعه لاهثًا. تحلَّ بالصبر والإرادة وفكِّر في أن أقل ما يمكننا فعله ألا نُصَعِّب عليه أن يأتي، كما تفعل الأرض بالربيع عندما يرغب في المجيء .

أتمنى لك السعادة والسلوى .

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

روما، في 14 مايو 1904

عزيزي السيد «كابوس » ،

لقد مر وقت طويل منذ تلقيت رسالتك الأخيرة. أرجو ألا تستاء مني لذلك، فقد شغلني في البداية العمل، ثم بعض الإزعاج، وأخيراً المرض، هذا ما منعني من كتابة هذا الرد الذي رأيت (هكذا أردت) أنه يجب أن يأتيك من رحم أيام هادئة وجيِّدة. والآن أشعر ببعض التحسن (كانت بداية الربيع، بما تحمله من تغيرات سيئة ومُتقلبة، موحشةً بالنسبة إليَّ)، واليوم ها أنا ذا أكتب لك، عزيزي السيد «كابوس » ، كي أحييك وأقول لك (وهو ما أحب كثيراً فعله) هذا أو ذاك عما ورد في خطابك، بقدر ما أعرف .

أنت ترى أني قد نقلت قصيدة «السونيت» التي أرسلتها لي، لأني وجدت أنها جميلة وبسيطة وولدت في الشكل الذي يتناسب مع اللياقة الساكنة. إنها أجمل أبياتك التي سمحت لي بقراءتها. والآن أقدم لك تلك النسخة، لأني أعرف أنه مهم ويمثل خبرة جديدة تمامًا أن تقرأ عملاً لك وقد كتبه غيرك. اقرأ الأبيات وكأنها غريبة، وستشعر في أعماقك كم هي لك .

لقد كان مصدر سعادة لي أن أقرأ هذه القصيدة ورسالتك عدة مرات، وأشكرك على كلتيهما .

عليك ألا تحتار وأنت في وحدتك عندما تشعر أن شيئًا بداخلك يرغب في الخروج منها. فإن هذه الرغبة تحديدًا، إذا استعملتها بهدوء ووعي وكأنها أداة، فستساعدك على مدِّ وحدتك لتسع أرضًا جديدة. لقد حلَّ الناس كل شيء (بمساعدة توافقات) مستخدمين أسهل السهل من الجوانب؛ ولكن من الواضح أننا يجب أن نُلزم أنفسنا بالصعب؛ فكل حيٍّ يلتزم به، كل شيء في الطبيعة ينمو ويقاوم بطريقته، ويتميَّز من ذاته بذاته، ويحاول بأي ثمن أن يُصبح نفسه على الرغم من كل ما يواجه من مقاومة. إننا نعرف القليل، ولكن الأمر المؤكد هو أننا يجب أن نُلزم أنفسنا بالصعب، وهذه القناعة لن تتركنا. من الجيد أن يكون المرء وحيدًا، لأن الوحدة صعبة؛ إن صعوبة الشيء يجب أن تكون سببًا إضافيًّا كي نفعله .

كما أنه من الجيد أن نُحب، لأن الحب صعب. والحب من إنسان لآخر: ربما يكون أصعب الأشياء التي أُعطيناها، أقصى الأشياء، آخر التجارب والاختبارات، العمل الذي يُعَد كل عمل آخر مجرد إعداد له. لذلك لا يستطيع الشباب، المبتدئون في كل شيء، أن يحبوا: يجب أن يتعلموا الحب. بكل الكيان، بكل قوة مجتمعة حول قلبهم الوحيد، الحزين، النابض إلى العُلى، يجب أن يتعلموا كيف يحبون. ولكن وقت التعلم يكون دائمًا وقتًا طويلاً مُنغلقًا على نفسه، وهكذا يكون الحب ليستمر طويلاً مُتسعًا في الحياة : الوحدة، الانعزال المتنامي المتعمق لذلك الذي يُحب. بداية الحب لا يعني الذوبان والتخلي والاتحاد مع الآخر، إذ ماذا سَيكون اتحاد ما هو غامض وغير مكتمل، ولم يزل غير منتظم؟ إنها لمناسبة عظيمة للفرد كي ينضج، ويُصبح شيئًا في ذاته،

ويُصبح عالَمًا، عالَمًا لذاته من أجل شخص آخر، وهذه مهمة عظيمة وليست بالبسيطة، إنه شيء يختار ذلك الفردَ ويدعوه إلى بعيد. فقط بهذا المعنى، كمهمة العمل على النفس («أن يصغي وأن يُعمل مطرقته ليل نهار»)، يمكن للشباب الاستفادة من الحب الذي يُعطَونه. الَذوبان والتخلي وكل أشكال المشاركة ليست لهم (أولئك الذين ما زال عليهم أن يدَّخروا ويجمعوا الأشياء طويلًا طويلًا)، لأن ذلك المتناهي هو ربما ما لا تكاد حياة البشر حاليًّا تكفيه .

لكن الشباب يتوهون عادةً في ذلك كثيراً، مرارًا وتكرارًا: في أنهم (وهو في طبيعتهم ألا يكونوا صبورين) يذوبون بعضهم في بعض حين يغشاهم الحب، يبعثرون أنفسهم بما هم عليه من شتات واضطراب وارتباك... ولكن ماذا يجب أن يكون؟ وما عسى الحياة تفعل بتلك الكومة من أنصاف الأمور المُحطَّمة، التي يسمونها أمورًا مشتركة بينهم، بل ويحلو لهم تسميتها سعادتهم، إن كانت تسير على ما يرام، ويسمونها مستقبلهم؟ كل منهم يفقد نفسه من أجل الآخر، ويفقد الآخر وآخرين كُثراً ممن كانوا يرغبون في المجيء. ويفقد الاتساعات والاحتمالات، ويتخلى عن إقبال الأمور الاستشرافية الهادئة وإدبارها في مقابل حيرة عقيمة، لم يعد ممكنًا أن تُثمر شيئًا سوى بعض الاشمئزاز والإحباط والفقر، والنجاة في صورة أحد التوافقات التي وُضع كثيرٌ منها على أخطر الطرق لتكون بمثابة أكواخ حماية عامة. لا يوجد مكان في حياة البشر به مثل هذا الكم من التوافقات: توجد أشكال مختلفة مما اخترعوه من أحزمة نجاة، قوارب، أطواق نجاة؛ عرفت النظرة الاجتماعية كيف تبتكر مختلف طرق الهرب، لأنها حيث مالت للنظر إلى حياة

الحب على أنها مُتعة، كان عليها أيضًا أن تجعلها في صورة سهلة ورخيصة وغير خطرة وآمنة، كما هي حال المُتع العامة .

على الرغم من شعور كثير من الشباب، الذين يحبون بطريقة خاطئة، أي يبذلون أنفسهم ببساطة ومن دون وحدة (وسيبقى ذلك في المتوسط على حاله) بضغط سوء الاختيار، وعلى الرغم من رغبتهم في جعل الحال التي تورطوا فيها قابلة للحياة ومثمرة بطريقتهم الخاصة، لأن طبيعتهم تخبرهم أن قضايا الحب، بصورة أقل حتى من غيرها من الأمور المهمة، يمكن حلها علانيةً باتِّباع هذا الاتفاق أو ذاك، وأنها قضايا تقترب من القضايا التي تكون بين إنسان وآخر، وتحتاج على أي حال إلى إجابة جديدة وخاصة وشخصية فقط: ولكن كيف يمكن لأولئك ـ الذين ذابوا بعضهم في بعض ولم يعودوا قادرين على الحفاظ على الحدود الفاصلة بينهم وعلى تمييز أنفسهم بعضهم عن بعض، ولم يعُد لديهم شيء خاص بهم ـ أن يجدوا مَخرجًا من داخل أنفسهم ومن أعماق الوحدة التي تقبع تحت الركام؟

إنهم يتصرفون انطلاقًا من عجز مشترك ويقعون، إذا أرادوا تجنب ذلك التوافق الذي يخطر ببالهم (ألاً وهو الزواج)، في براثن حل توافقي آخر أقل صخبًا ولكنه قاتل بالدرجة نفسها، لأن كل شيء حولهم يضجّ بالتوافقات؛ لأنه عندما ينبني التصرف على وجود مشترك ذي أجواء غائمة، انصهر فيه طرفان مبكرًا، فإن هذا التصرف يكون توافقيًّا، حتى ولو كان غير معتاد تمامًا (أي في التصور المعتاد غير أخلاقي)؛ حتى الانفصال يكون بمثابة خطوة توافقية، قرار غير شخصي وليد الصدفة

من دون قوة ولا ثمار .

مَن ينظر بجدية يجد أنه لا يوجد للحب الصعب، كما لا يوجد للموت الذي هو صعب أيضًا، تفسير ولا حل، ولم يجد له أحدٌ نصيحة ولا طريقًا؛ ولن يوجد لتلك المهمتين اللتين تقبعان بداخلنا، ونعطيهما لمن بعدنا من دون أن نؤديهما، قاعدة مشتركة تقوم على اتفاق ويمكن التحقق منها. ولكن بالقدر نفسه الذي نبدأ به محاولة الحياة الفردية، تقابلنا تلك الأشياء الكبيرة وتقترب من كل منا اقترابًا شديدًا. إن المتطلبات التي يطرحها عمل الحب الصعب على تطورنا تكون أكبر منا ولا نكون، ونحن مبتدئون، قادرين على الوفاء بها. ولكن إذا تحملنا ذلك الحب وتقبلناه بوصفه حملاً وفترة تعلُّم بدلاً من أن نفقد أنفسنا في كل تلك اللعبة السهلة الطائشَة، التي يختبئ الناس وراءها من أكثر شيء جدية في وجودهم، هكذا يمكن أن يتحقق، بطريقة ملموسة، تقدمٌ بسيط وتخفيف عمن سيأتون بعدنا؛ وإن استطعنا ذلك لكان ذلك كثيراً .

لقد بدأنا فقط الآن نتمكن من النظر إلى علاقة فرد بفرد آخر بصورة موضوعية ومن دون أحكام مسبقة، ومحاولاتنا لأن نحيا مثل تلك العلاقات ليس لها حتى الآن نماذج لنحاكيها، ولكن يوجد بالفعل في تحول الزمن بعض ما يمكن أن يساعد حالة المبتدئين المتخوفة .

ستصبح الفتيات والنساء، في تفتحهن الجديد والخاص، مقلدات لسلوك الرجال ووقاحتهم أيضًا، ومكررات لمِهن الرجال، ولكن بصورة

مؤقتة. وسيتضح، من بعد الحيرة التي تنطوي عليها مثل تلك التحولات، أن النساء قد قمن بذلك الكم وذلك التغيير في محاولات التنكُّر (التي تكون عادة سخيفة) كي تُنقين كيانهن الخاص من تأثيرات الجنس الآخر التي تشوههن. يُفترض أن النساء، اللاتي تكمن فيهن الحياة وتسكن بصورة مباشرة ومثمرة وملؤها الثقة، قد أصبحن أناسًا أكثر إنسانية من الرجل السهل، الذي لم يجذبه ثقل أي إثمار جسدي إلى ما تحت سطح الحياة، الرجل المتغطرس المتعجل الذي يسيء تقدير ما يدَّعي أنه يحبه. إنسانية المرأة، بكل ما عانته من ألم ومهانة، ستظهر بعد أن تنتهي من تحولات مظهرها التي تسعى من خلالها للتخلص من توافقات كونها مجرد أنثى، وعندها سيتفاجأ وينكسر الرجال الذين لا يشعرون بعد بقدوم ذلك. في يوم من الأيام (وقد ظهرت بعض بوادره المؤكدة وأضاءت على الأقل في الدول الشمالية)، في ذات يوم ستوجد الفتاة أو المرأة التي لن يكون اسمها مجرد مقابل للذكورة، بل سيصبح شيئًا في حد ذاته، شيئًا لا يفكر المرء فيما يكمله أو يحدُّه، بل يفكر فقط في حياته ووجوده: الإنسان الأنثى .

وهذا التقدم سيحوِّل معايشة الحب، التي تعُج حاليًّا بالتيه (وسيكون ذلك بداية ضد رغبة الرجال الذين عفا عليهم الزمن)، وسيغيرها من أساسها ويعيد تشكيلها إلى علاقة إنسان بإنسان، ولن تعودَ علاقة رجل بأنثى. وذلك الحب الأكثر إنسانية (الذي سيتسم بمراعاة غير محدودة وسيتم، سواء في عقده أو حله، في هدوء ووضوح وبطريقة جيدة) سيشبه أولئك الذين نُعدُّهم بصعوبة ومشقة، سيشبه الحب الذي يتجلى في أن يقوم وحيدان كل بحماية الآخر وتحديده وتحيته .

فضلاً عن ذلك: إياك أن تعتقد أن ذلك الحب الكبير الذي وُضِع فيك وأنت فتى صغير قد ضاع؛ ألا يمكنك أن تقول إن هناك أماني كبيرة وطيبة قد نمَت بداخلك في ذلك الوقت وبدايات ما زلت تعيش عليها حتى الآن؟ أعتقد أن ذلك الحب يبقى في ذاكرتك قويًّا عظيمًا لأنه كان أول حالة وحدة عميقة تعيشها وأول عمل داخلي قمت به لتشكيل حياتك. لك مني كل الأماني الطيبة، عزيزي السيد «كابوس»!

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

قصيدة

ألمٌ عميقٌ داكن يرتجف عبر حياتي

دون شكوى، دون تنهيدة .

زهرة ثلج أحلامي

تجعل أهدأ أيامي سعيدة .

لكن كثيراً يعترض السؤال الكبير طريقي .

أتضاءل وأمُر في برودة

وكأني أمر على بُحيرة،

لا أجرؤ على حصر فيضها .

ثم يحلُّ عليَّ ألمٌ غائم ورمادي

مثل ليالي الصيف ذات الأنوار الخافتة،

حين يومض في سمائها نجمٌ ـ بين فَينة وفَينة :

تتحسس بحثًا عن حُبٍّ يداي،

لأني أود الصلاة بحروفٍ،

لا يستطيع فمي المتوهج أن يجدها ...

«فرانتس كابوس »

«بورجيبي جارد»، «فلادي»، السويد،

في 12 أغسطس 1904

أود التحدث إليك قليلاً، عزيزي السيد «كابوس»، مع أني أكاد لا أستطيع ذِكر ما يساعد أو ينفع. لقد عانيت كثيراً من الأحزان الكبيرة، التي مرَّتَ عليك، وتقول إن مرورها أيضًا كان صعبًا ومزعجًا بالنسبة إليك. لكن أرجوك أن تفكر ما إذا كانت تلك الأحزان قد مرت بالأحرى من خلالك، ما إذا كان كثيرٌ قد تحول بداخلك، ما إذا كنت قد تغيرت في موضع ما، في مكان ما بداخلك، حين كنت حزينًا. إن الأحزان التي تكون خطرة وسيئة هي فقط تلك الأحزان التي يتحملها المرء بين الناس كي يتناساها، مثل الأمراض التي يتم علاجها بسطحية وحُمق، ثم تعود مُجددًا وتستفحل بصورة أسوأ بعد استراحة قصيرة؛ ثم تتجمع في الداخل وتصبح حياة، حياة لم نعشها، حياة مُهينة وضائعة، يمكن أن يموت المرء بسببها. لو كان بإمكاننا أن ننظر أبعد مما يصل إليه علمنا، وأبعد من الأعمال السابقة لأسلافنا، عندها فقط ربما نستطيع تحمل أحزاننا بثقة أكبر مما نتحمل به مواطن سعادتنا. لأنها تكون تلك اللحظات التي يظهر فيها شيء جديد بداخلنا، شيء غير معروف؛ تصمت مشاعرنا في حرجٍ خجول، كل ما فينا يتراجع، وينشأ صمت، ويقف ذلك الجديد، الذيً لا يعرفه أحد، في وسط ذلك كله ويصمت .

أعتقد أن كل أحزاننا هي لحظات توتر، ندركها على أنها جمود، لأننا لا نعود نسمع دبيب الحياة في مشاعرنا التي اعتراها التغريب . لأننا نكون

وحيدين مع الغريب الذي ظهر فينا؛ لأننا نُسلَب للحظة كل ما ألفناه وعرفناه؛ لأننا نقف في وسط مرحلة انتقالية، حيث لا يمكن أن نظل وقوفًا. لذلك يمرُ الحزن أيضًا: الجديد فينا، الذي أُضيف إلينا، ظهر في قلبنا، دخل في أعمق غُرَفه، ولم يبقَ هناك، فقد أصبح في دمنا. ولا نعرف ما كان ذلك. يمكن أن يقنعنا أحد ببساطة أن شيئًا لم يحدث، في حين نكون قد تغيرنا بالفعل، كما يتغير بيت حين يدخله ضيف . لا يمكننا أن نقول من الذي أتى، وربما لن نعرف ذلك أبدًا، ولكن توجد علامات كثيرة على أن المستقبل قد تسرَّب إلينا بتلك الطريقة، كي يتحول بداخلنا، قبل أن يحدث فعلاً بفترة طويلة. ولذلك فإنه من المهم أن يكون المرء وحيدًا ومنتبهًا عندما يكون حزينًا: لأن تلك اللحظة التي تبدو ساكنة وجامدة، حين يدخلنا المستقبل، تكون أقرب للحياة من تلك اللحظة الصاخبة العبثية الأخرى، لأن الأخيرة تحدث لنا وكأنها آتية من الخارج. كلما كنا ونحن حزانى ساكنين وصبورين ومنفتحين، استطاع ذلك الجديد أن يتوغل فينا بصورة أعمق وأوثق، واستطعنا بطريقة أفضل اكتسابه، وأصبح بشكل أكبر قدَرنا، وسنشعر في داخلنا بقربنا منه وبقرابتنا له عندما يتحقق في يوم لاحق (أي: عندما يخرج من داخلنا إلى الآخرين). وهذا أمر ضروري. إنه من الضروري ـ وهذا هو الاتجاه الذي سيسير فيه تطورنا شيئًا فشيئًا ـ ألَّا يحدث لنا شيء غريب، وإنما فقط ذلك الذي يخصنا منذ زمن طويل. لقد اضطر الإنسان للتفكير في مصطلحات كثيرة تُعبر عن الحركة، وسيتعلم الإنسان بالتدريج أيضًا أن ما نسميه قدَرًا يخرج من الناس ولا يدخل فيهم من الخارج. فقط لأن كثيراً من الناس لم يمتصُّوا أقدارهم وهي ما زالت فيهم، ولم يحولوها في داخلهم، لم يدركوا ما يخرج منهم، ورأوه غريبًا،

واعتقدوا وهم في حيرة صدمتهم أنها تتوغل فيهم الآن وليس قبل ذلك، ويُقسمون إنهم لم يجدوا شيئًا مثله في أنفسهم من قبل. كما أخطأ الناس طويلاً في فهم حركة الشمس، يخطئ المرء حتى الآن في فهم حركة الآتي. لقد أُبرم المستقبل بالفعل، يا عزيزي السيد «كابوس»، ولكننا نتحرك في فضَاء غير محدود .

فكيف إذًا لا نجد ذلك صعبًا؟

وإذا عدنا للحديث عن الوحدة، فسيتضح أكثر وأكثر أنها في الأساس ليست بالشيء الذي يمكن للمرء أن يختاره أو يتركه. إننا وحيدون. يمكن أن يخدع المرء نفسه في ذلك ويتصرف وكأن الأمر ليس كذلك. هذا كل شيء. ولكن كم سيكون من الأفضل أن نرى أننا وحيدون، وأن ننطلق من أننا وحيدون. إلا أننا سنُخادع، لأن كل النقاط التي يمكن لأعيننا أن تتوقف عندها ستُسلب منا، لا يوجد أي شيء قريب، وكل شيء بعيد فهو بعيد بلا نهاية. إن مَن يُؤخذ من بيته ليوضع دون إعداد يُذكَر أو مرحلة انتقالية فوق قمة جبل ضخم فإنه سيتولد بداخله ما يشبه حالة لا مثيل لها من التوجس؛ وإحساس بالعجز في مواجهة شيء لا اسم له سيدمره تمامًا. سيشعر وكأنه سيسقط أو سيعتقد وكأن شيئًا يقذفه إلى الأسفل، أو أنه يتكسَّر إلى آلاف القطع: وهنا يحتاج عقله إلى كذبة هائلة كي يعوِّض ما تشعر به حواسه ويوضحه. وهكذا تتغير بالنسبة إلى مَن يصبح وحيدًا كل المسافات والأحجام؛ وتنطلق من تلك التغيرات فجأة، كما هي حال الرجل فوق قمة الجبل، وتنشأ تخيلات وأحاسيس غريبة تبدو خارج حدود أي احتمال. ولكن من الضروري أن

نعيش ذلك. يجب أن نتقبل وجودنا قدر الممكن، يجب أن يكون كل شيء فيه ممكنًا، حتى الأمور الشائنة. وهذا في الحقيقة اللون الوحيد من الشجاعة المطلوبة منا: أن نتحلى بالشجاعة في مواجهة أغرب الأشياء التي يمكن أن تقابلنا، وأعجبها، وأقلها وضوحًا. حقيقة أن البشر كانوا في هذا الصدد جبناء قد أضرت بالحياة بلا حدود؛ المعايشات التي يسميها المرء «ظواهر»، وكل «عالم الأشباح» والموت، كل تلك الأمور شديدة الشبه بنا تم طردها من الحياة بشدة عن طريق دفاعاتنا اليومية، حتى تضاءلت الحواس التي كان يمكننا إدراكها بها. ناهيك عن الرب. ولكن الخوف مما هو غامض لم يُصب حياة الفرد وحده بالافتقار، ولكن أيضًا علاقة الإنسان بالإنسان قد أصبحت محدودة، كما لو تقلصت إمكانات مجرى النهر غير المحدودة على رقعة قاحلة من شاطئه، حيث لا يحدث شيء. ليس الخمول وحده الذي يجعل علاقات البشر رتيبة وغير متجددة تمامًا من حالة إلى أخرى، وإنما التخوف من أي حدث جديد غير متوقَّع، يعتقد المرء أنه غير قادر عليه. فقط من يكون مستعدًّا لكل شيء ولا يستبعد حتى أكثرها غموضًا، يمكنه أن يعيش علاقته بشخص آخر على أنها شيء حي وسيخلق لنفسه بنفسه وجودًا. فمثلما نرى وجود الفرد على أنه فضاء أكبر أو أصغر، هكذا يتضح أن معظم الناس لا يتعرفون سوى على ركن واحد من فضائهم ـ مكان عند النافذة، شريط رفيع يتحركون عليه ذهابًا وإيابًا. هذا فقط يمنحهم بعض الشعور بالأمان. في حين أن الشعور بالشك الذي يكتنفه الخطر أكثر إنسانية، كالذي يدفع السجناء في قصص «إدجار آلان بو» كي يتحسسوا أشكال سجنهم الرهيب ولا يشعروا بالغربة تجاه أهوال إقامتهم فيه التي لا توصف . ولكننا لسنا

سجناء . لا توجد أقفاص ومشانق من حولنا، ولا يوجد ما يجب أن يخيفنا أو يعذبنا. لقد وُضِعنا في الحياة بوصفها العُنصر الذي نُلائمه أكبر ملاءمة، كما أصبحنَا، عبر عملية توافق استمرت آلاف السنين، شديدي الشبه بهذه الحياة، لدرجة أننا، لو سكنا، فسيصعب، من خلال مُحاكاة سعيدة، تمييزنا عن كل ما يُحيط بنا. لا يوجد لدينا داعٍ لفقدان الثقة في عالمنا، لأنه لا يقف ضدنا. إذا كان فيه أهوال، فهي أهوالنا، وإذا كان فيه مَهاوي فإنما هي لنا، وإذا وُجدت مخاطر فعلينا محاولة حبها. وإذا نظمنا حياتنا تبعًا للمبدأ الذي يَنصحنا بأن علينا دائمًا الالتزام بما هو أصعب، فسيتحول ما نراه الآن الأغرب إلى أكثر الأشياء أُلفة وأغلاها. كيف يمكننا نسيان الأساطير القديمة التي توجد في بدايات كل الشعوب، أساطير التنانين التي تتحول في آخر لحظة إلى أميرات؛ ربما تكون جميع تنانين حياتنا أميرات تنتظر فقط أن ترانا ذات مرة جميلين وشجعانًا. ربما يكون أفظع الأشياء في قرارة نفسه مجرد عاجز يطلب مساعدتنا .

لذلك لا يجب، عزيزي السيد «كابوس»، أن تفزع إن اعتراك حزن عظيم لم ترَ مثله من قبل، وإذا مرَّ قلقٌ، مثل الضوء وظل السحاب، فوق يديك وكل ما تعمل. يجب أن تفكر في أن شيئًا يحدث لك، وأن الحياة لم تنسَك؛ إنها تمسك بك في يدها، ولن تدعك تسقط. لماذا تريد استبعاد أي قلق أو أي ألم أو أي حزن من حياتك، وأنت لا تعرف ما الذي تفعله تلك الأحوال بك؟ لماذا تريد ترك السؤال يطاردك عن مصدر كل ذلك ومنتهاه؟ وأنت تعلم أنك في مراحل انتقال ولا تتمنى شيئًا قدر ما تتمنى أن تتغير. إذا اعتراك في بعض أحوالك المرض فاعلم أن المرض هو

الوسيلة التي يُخلِّص بها الكائن الحي نفسه مما هو غريب عنه، لذا يجب مساعدته على أن يمرض، أن يعيش مرضه كله ويُطلق عنانه، لأن ذلك خطوة على طريق تقدُّمه. بداخلك، عزيزي السيد «كابوس»، يحدث الآن الكثير؛ لذا يجب أن تتحلى بالصبر مثل المريض، وبالثقة مثل الذي يبرأ، لأنك ربما تكون كليهما. بل والأكثر: أنت أيضًا الطبيب الذي يجب أن يرعى نفسه. ولكن في كل مرض توجد أيام كثيرة، لا يسع الطبيب فيها سوى الانتظار. وهذا ما يجب عليك فعله الآن، ما دمت طبيب نفسك .

لا تراقب نفسك أكثر مما يجب. لا تتسرع في استخراج الاستنتاجات مما يحدث لك؛ دعِ الأمور تحدث لك. وإلا ستصل بسهولة كبيرة إلى النظر باتهامات (أيَ: أخلاقيًّا) إلى ماضيك، الذي يُشارك الآن بطبيعة الحال في كل ما يحدث معك؛ ولكن ما يعتمل بداخلك من حيرة وأماني وأشواق من وقت طفولتك ليس ذلك الذي تتذكره وتحكم عليه. إن الظروف الاستثنائية لطفولة وحيدة عاجزة تكون صعبة ومعقدة وتخضع لمؤثرات كثيرة، وفي الوقت نفسه هي منسلخة من كل سياقات الحياة الواقعية، بحيث إذا ظهر عبء فيها، فلا يمكن أن نسميه ببساطة عبئًا. يجب عمومًا أن يحتاط المرء في التعامل مع الأسماء، فعادة ما تتحطم الحياة على اسم جريمة وليس على الفعل الشخصي نفسه، الذي لا اسم له، والذي قد يكون من ضرورات تلك الحياة وقد تقبلَتْه من دون عناء. ويبدو لك استهلاك الطاقة كبيراً هكذا فقط لأنك تبالغ في تقدير النصر؛ ليس هو الأمر الكبير الذي تظن أنك قمت به، مع أن شعورك في محله؛ الأمر الكبير هو أن شيئًا كان هناك فعلاً، شيئًا

استطعت وضعه مكان ذلك الخداع، شيئًا حقيقيًّا وواقعيًّا. من دون ذلك سيكون حتى انتصارك مجرد رد فعل أخلاقي من دون مغزى عميق، بينما هكذا سيكون قد أصبح مرحلة في حياتك. حياتك، يا عزيزي السيد «كابوس»، التي أحمل لها كثيراً من الأماني الطيبة في أفكاري. أتذكر كيف أن هذه الحياة كانت تتمنى أن تخرج من الطفولة بشيء «كبير»؟ وأرى كيف تتمنى الآن الخروج من الكبير إلى الأكبر، لذلك لا تتوقف عن أن تكون صعبة، ولكن هذا لن يجعلها تتوقف عن التطور .

وإن كان عليَّ أن أخبرك شيئًا آخر، فسيكون التالي: عليك ألا تظن أن ذاك الذي يحاول مواساتك يعيش من دون عناء تحت وطأة الكلمات البسيطة الهادئة، التي قد تُريحك أحيانًا. إن حياته فيها كثيرٌ من العناء والحزن، وتظل دونك كثيراً. ولكن لو كان الأمر على خلاف ذلك، لما تمكن أبدًا أن يجد تلك الكلمات .

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

«فوروبورج»، «يونسيريد»، في السويد،

في 4 نوفمبر 1904

عزيزي السيد «كابوس » ،

في ذلك الوقت الذي مر من دون رسالة، كنت أحيانًا أرتحل وأحيانًا مشغولاً بالقدر الذي منعني من الكتابة. وحتى اليوم أجد صعوبة في الكتابة لأنه كان عليَّ كتابة كثير من الرسائل، ما أتعب يدي. لو كان متاحًا لي أن أُملي رسائلي لقلت لك الكثير، أما هكذا فتقبَّل كلماتي القليلة ردًّا على رسالتك الطويلة .

إنني، عزيزي السيد «كابوس»، أفكر فيك كثيراً، وبأماني مركزة إلى حد أن ذلك لا بد أن ينفعك بشكل أو بآخر. أشك كثيراً فيما إذا كانت في رسائلي مساعدة لك. لا تقل، نعم فيها ذلك. تقبلها بهدوء ومن دون كثير شكرٍ، ودَعْنا ننتظر ماذا سيأتي .

ربما لن يكون نافعًا أن أعلِّق على كل ما جاء برسالتك، لأن ما يسعني قوله عن ميلك للشك أو عجزك عن المواءمة بين الحياة الخارجية والداخلية، أو عن أي شيء آخر يزعجك، سيكون نفس ما قلته من قبل: الرجاء أن تجد في نفسك ما يكفي من الصبر على التحمُّل، وما يكفي من البساطة حتى تصدق أنك يجب أن تكتسب مزيدًا ومزيدًا من الثقة

فيما هو صعب وفي وحدتك بين الآخرين. فضلاً عن ذلك دع الحياة تحدث لك. صدقني: الحياة مُحقة على أي حال. وعن المشاعر: كل المشاعر التي تلخِّصها وتبرزها نقيَّة؛ والذي يفتقر إلى النقاء هو فقط الشعور الذي يستحوذ على جانب واحد من كيانك ويجعلك تبدو على غير ما أنت عليه. كل ما يمكنك التفكير فيه بالنظر إلى طفولتك فهو جيد. وكل ما يصنع منك أكثر مما كنت عليه حتى الآن في أفضل أوقاتك فهو طيب. كل زيادة تكون جيدة إذا كانت في كل دمك، ما لم تكن ضجيجًا وحزنًا، وإنما سعادة يرى المرء منبعها. هل تفهم ما أعني؟

ويمكن لشكِّك أن يصبح صفةً جيدة إذا ربيته. يجب أن ينبني على علم ويصبح نقدًا. سلهُ، كلما حاول إفساد شيء عليك، لماذا يرى أن شيئًا قبيحٍ، اطلب منه الأدلة، اختبره، وربما ستجده حيرانَ وحرجًا وربما أيضًا ثائرًا. ولكن لا تستسلم، اطلب أدلة وتصرف بانتباه وَاتساق، في كل مرة، وسيأتي اليوم الذي سيتحول فيه من مُدمِّر إلى واحدٍ من أفضل عُمَّالك ـ وربما سيصبح أذكى العمال الذين يبنون حياتك .

هذا كل شيء، عزيزي السيد «كابوس»، الذي يمكنني قوله لك اليوم. ولكني سأرسل لك في الوقت نفسه طبعةً خاصة من قصيدة قصيرة، ظهرت في مجلة «العمل الألماني» في براغ. وفيها أستكمل حديثي إليك عن الحياة والموت، وعن أن كليهما رائع .

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

باريس، في ثاني أيام عيد الميلاد المجيد، 1908

يجب أن تعرف، عزيزي السيد «كابوس»، كم أسعدني تلقي هذه الرسالة الجميلة منك. إن الأخبار التي تسوقها إليَّ يمكن فعلاً القول بأنها هذه المرة أيضًا تبدو لي جيدة، وكلما أمعنت النظر فيها وجدتها جيدة فعلاً. أردت أن أكتب لك ذلك في ليلة عيد الميلاد، ولكن العيد القديم قد داهمني وأنا غارق في العمل الذي أعيش فيه كثيراً ومن دون انقطاع هذا الشتاء، حتى لم أكد أجد وقتًا لإعداد العدة اللازمة، فما بالك للكتابة .

ولكني فكرت فيك كثيراً في أيام الأعياد هذه وتصورت كم أنت بالتأكيد في حالة من السكون في قلعتك الوحيدة بين الجبال الفارغة التي تهب عليها رياح جنوبية عاتية وكأنها تريد أن تفترسها في قطعٍ كبيرة .

إن ذلك السكون بالتأكيد هائل، حيث يجد مثل ذلك الضجيج وتلك الحركات لنفسها مكانًا، وإذا فكر المرء في وجود البحر البعيد بالإضافة لكل ذلك، وأنه يشارك تلك الأصوات بصوته وكأنه أعمق الأصوات الداخلية، في ذلك الانسجام قبل التاريخي، فلن يسع المرء إلا أن يتمنى لك أن تدع بصبر وثقة تلك الوحدة العظيمة أن تُعمل فيك تأثيرها، تلك الوحدة التي لنَ يمكن إلغاؤها من حياتك بعَد ذلك، وستظل في كل ما ستُعايشه وتفعله مستقبلاً مستمرة في صورة تأثير مجهول وستؤثر فيه بهدوء وحزم، كما تتحرك بداخلنا دماء أسلافنا من دون انقطاع، وتندمج مع دمائنا في شيء فريد لا يتكرر نكُونُه في كل

تحوُّل في حياتنا .

نعم: يسعدني أن لك هذا الوجود القوي الذي يتحدث عن نفسه، هذا اللقب، وهذا الزيَّ، وتلك الخدمة؛ كل تلك الأمور الملموسة والمُقيدة، والتي تكتسب جدية وضرورة في مثل ذلك المحيط مع فريق معزول أيضًا وليس بكثير العدد، تعني استخدامًا متناميًا يفوق ما تتسم به المهنة العسكرية من مرح وتوفير وقت، وليس فقط تسمح بحالة انتباه مستقلة، بل وتربيها أيضًا. وحقيقة أننا نعيش في ظروف تعمل علينا وتضعنا أمام أشياء طبيعية كبيرة بين الحين والحين، هذا وحده الأمر الضروري .

إن الفن أيضًا مجرد طريقة للحياة، ويمكن للمرء، وهو حي بطريقة ما، أن يُعد نفسه له من دون أن يعرف، ففي كل أمر واقعي يكون المرء أقرب إليه وأكثر جوارًا مما يكون عليه في المهن غير الواقعية وشبه الفنية، التي تعكس قُربًا من الفن، ولكنها فعليًّا تُنكر وجود كل أشَكال الفن وتهاجمها، على سبيل المثال كما يفعل العمل الصحفي كله، وتقريبًا كل النقد، وثلاثة أرباع ما يُسمى أدبًا أو يدَّعي أنه كذلك. أنا سعيدٌ، وبكلمة واحدة، سعيد لأنك قد تخطيت خطر الوقوع في ذلك، وتقف وحيدًا وشجاعًا في مكان ما في واقع قاسٍ. أتمنى أن يحفظك العام الذي هلَّ وأنت على ذلك، ويقويك .

لك دائمًا

المخلص،

راينر ماريا ريلكه

الكاتب

ولد «رينيه ماريا ريلكه» في براغ في 4 ديسمبر 1875. بعد انفصال والديه عام 1884، عاش مع والدته. أراد والداه توجيهه نحو المهن العسكرية، فسجلاه تباعًا في عدة مدارس عسكرية، ابتداء من عام 1886. لكنه فُصل منها نهائيًّا عام 1891، لعدم ملاءمته البدنية للحياة العسكرية. وكان قد بدأ كتابة القصائد والقصص القصيرة في سنوات المراهقة تلك، وأصدر أول ديوان شعري له عام 1894، «حياة وأغاني ».

نال الشهادة الثانوية في براغ عام 1895، وبدأ دراسات عليا في الأدب وتاريخ الفن، ثم انتقل إلى «ميونيخ» حيث بدأ دراسة الفلسفة، وتعرف إلى «لو أندرياس سالوميه» التي ستصبح عشيقته أولاً، ثم صديقته الحميمة مدى الحياة .

عام 1897، انتقل معها إلى برلين، وغيَّر اسمه من «رينيه» إلى «راينر». في رحلة إلى إيطاليا عام 1898، إلى «فلورنس» و«فياريدجو» تحديدًا، كتب أول نسخة من مسرحيته «الأميرة البيضاء ».

عاد إلى برلين والتحق بجامعتها ليدرس تاريخ الفن. بين 1899 و1900 قام برحلتين إلى روسيا مع «لو»، وبدأ يحضر لكتاب عن الرسامين الروس، لكنه لم يكمله، وتعرف إلى «تولستوي ».

تعرف إلى «كلارا فستهوف»، وهي نحاتة وتلميذة «رودان»، في صيف

1900، وتزوجها في العام التالي ورُزقا بنتًا وحيدة، «روث»، في العام نفس

عام 1902، كلفه ناشر ألماني بتأليف كتاب عن «رودان» فتوجه إلى باريس والتقى النحات، ونُشر الكتاب عام 1903 .

عمل سكرتيراً لـ«رودان» بين 1906 و1907، ونشر روايته الوحيدة، «دفاتر مالته لاوريدز بريجه» عام 1910. سافر إلى أفريقيا الشمالية ومصر نهاية عام 1910 وحتى مارس 1911 .

قضى معظم سنوات الحرب العالمية الأولى في «ميونيخ» لتعذر عودته إلى باريس في تلك الظروف. بعد الحرب، عام 1919، تنقل بين مدن سويسرا وألقى سلسلة محاضرات، واستقر في مقاطعة «فاليه» ابتداء من 1921 .

عام 1923 نشر ديوانيه الأشهرين، «مرثيات دوينو» و«قصائد أورفيوس ».

أصيب بسرطان في الدم وأقام في المصحات السويسرية مرارًا بين 1924 و1926، وفي هذه السنوات كتب قصائد بالفرنسية وترجم أعمال «بول فاليري» إلى الألمانية، والتقى الشاعر الفرنسي أكثر من مرة .

توفي «راينر ماريا ريلكه» في 26 ديسمبر 1926 .

المترجم

صلاح هلال أستاذ مساعد للأدب الألماني الحديث في كلية التربية جامعة عين شمس، ومترجم تحريري، ومترجم فوري، ومراجع حر. حاصل على الإجازة الدولية لتدريس اللغة الألمانية من «معهد جوته» وجامعة «ميونيخ». كما درس الأدب الألماني القديم والحديث، والنقد الأدبي، والترجمة، والعلوم الإسلامية في جامعة «بون» بألمانيا .

شارك في كثير من الندوات والمؤتمرات وورش العمل التي عُقدت في ألمانيا وفي مصر، في مجالات الترجمة، وتدريس اللغات الأجنبية، وحوار الثقافات وحوار الأديان. كما شارك في عدد من مشروعات تطوير المناهج وطرق تدريس الأدب والحضارة .

ترجم عديدًا من الأعمال العلمية والأدبية، لـ«نافيد كرماني»، و«ماكس فيبر»، و«أرنو جايجر»، و«هيلكه زوزينبووم»، و«يانا فراي» و«جيني إربينبيك»، وغيرهم، كما ترجم كتب أطفال لـ«يوليا بومي». وهو بالإضافة إلى كل ذلك يكتب الشعر والزجل والقصة .

ترجمات الكرمة

1. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد .

2. سالباتييراَ - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال .

3. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي .

4. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي .

5. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد . ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى .

6. الاعتداء - هاري موليش . ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد .

7. صباح ومساء - يون فوسه . ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش .

8. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي .

9. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية : أمير العيوطي .

10. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية : سمير جريس .

11. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفا

يوسف .

12. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال .

13. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة .

14. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانز فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس .

15. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية : مصطفى كامل فودة .

16. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي .